# عقيدة المسلم

تأليف الاستاذ الراهب محمد الغزالي

الاستاذ محمد فياض

من القواعد الاجتماعية التي نرى مع معتنقيها وجوب الأخذ بها : أن الشيء لا يوجد ، أو بعبارة أدق وأصدق في الحكم ، لن يكون له كيان إلا إذا كان المجتمع في حاجة إليه ، وبمقدار ما تكون عليه حاجة المجتمع لشيء ما ، بمقدار ما يكون وجوده بل كيانه متحققاً في عالم الواقع ، وكنا نعلم أنه قد يوجد عبقري في بيئة ما ، ولكن تلك البيئة في حالة لا تسمح له بوجود أو كيان ، أو في حالة لا تهيئ له الظروف التي ينبثق من ورائها نبوغه ؛ ومن يدري فلربما لو قدر لنابليون ، أن يعيش في غير عصره أو في غير بيئته ؛ بل لم نكن بيئته على الوضع الذي كانت عليه إبان وجوده ؛ لما قدر له وجود أو كيان .. لأن استجابة مجتمعه إليه ، كان متوازياً مع حاجته إلى قدرات « نابليون » وإمكانياته الخاصة

وعندنا الآن في الشرق ، حين نتقفى الآثار العديدة في ميادين الحياة العامة ، على ما بها من تشابك واختلاط وتغلغل ؛ وهنا في مصر على وجه الخصوص ، حين نتتبع علائم الحياة في مجتمعنا العربي ؛ نجد أن كل مظهر نشهده ، وكل تقدم نحصل عليه .. إنما حدث وبحدث وفقاً لمقدار الحاجة الشعبية إليه ، ولمقدار شعورنا بتلك الحاجة ، ونعتقد أن ما يمنعنا عن التفصيل في تتبع الآثار الرئيسية التي تكشف عن حاجاتنا الاجتماعية والسياسية والفكرية .. في الشرق وفي مصر ؛ هو أننا في غير موطن الحديث ، خاصة والأحداث الشرقية والمصرية على السواء لم تستكمل حلقاتها النهائية بعد ؛ وشيء آخر ، لعل القارىء يدريه ، وأمله أن يتصل بشؤون السياسة الحاضرة أو نظم الحكم الموجودة .. من قريب أو بعيد !!

ولكننا مع ذلك ، سنتحدث في ميدان من تلك الميادين ، وعن كتاب من تلك الكتب التي خرجت إليه باعتباره أكمل كتاب وجد في حقله الخاص من ذلك الميدان ، وعن مؤلفه باعتباره أول رائد أصاب في ذلك الحقل جد الكمال

فما سقنا تلك المقدمة المجملة إلا من أجل شيء أردنا توضيحه وأردنا الحلوص إليه ، بعد إقامة الأساس الذي تستند إليه فكرتنا عن ذلك الكتاب وعن مؤلفه العالم الأديب

ونستطيع القول أنه منذ ربع قرن تقريباً ، وقد بدأت حاجة الشعوب الإسلامية إلى النهضة من جديد في الاشتداد ؛ نعني أن هذه الشعوب قد بدأت في مرحلة الإحساس بالغاية والجوع إلى الاستقرار العام والتنظيم الشامل .. على الأساس الاسلامي؛ ونعني أيضاً أن مشاعر الفكرة الاسلامية في نفوس هذه الشعوب قد دخلت في دور آخر دعامتاه : التكتل من جهة ، والتكوين من جهة أخرى ، ولقد كان ذلك الدور الحديث نتيجة طبيعية لأدوار الانحلال التي منيت بها القرون الاسلامية الأخيرة تحت وطأة الحكم الفردي ، بما جره من ألوان الخلافة والإمارة والإقطاع ؛ فذلك الانحلال الذي أصاب الشعوب الاسلامية ، هو نفسه الذي أشاع اليأس القاتل فيها ، وشوه معالم العقيدة والسلوك في القلوب والأذهان .. وهو نفسه أيضاً الذي أحدث الأمل كرد فعل طبيعي مباشر ، لما شاع من يأس وما استشرى من قنوط . ويعنينا أن نؤكد بأن ذلك الأمل قد بزغ أول ما بزغ ، وأشرق أول ما أشرق .. في أرض الحجاز بدعوة « محمد بن عبد الوهاب » السلفية .. ثم ما أعقبه من أصداء لتلك الدعوة ، في آسيا .. على يد الإمام الشوكاني ، والسيد أحمد ، وجمال الدين الأفغاني ، وفي أفريقيا .. على يد السنوسي ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني

ويجب أن نقرر : أن الحكم الفردي الذي كان السبب الأول والمباشر ، لانحلال الفكرة الاسلامية وتدهور شعوبها ، هو الذي قضى على ازدهار الدعوة الوهابية وانتشارها ، وشوه حقيقتها في نفوس معتنقيها ومؤيديها إن لم يكن قد طمسها ؛ وأن الطابع الفكري المحض ، الذي اتسم به الدعاة من بعد ابن عبد الوهاب ، هو الذي باعد بين عامة تلك الشعوب ، وبين

هذه الدعوات وأرائها ، فاتجه هؤلاء الدعاة إلى الحكومات دون الشعوب ، وإلى الخاصة دون العامة .. وساعد على ذلك كله أن مرحلة الظمأ والجوع أو اليقظة الشعبية ، لم تجاوز بعد الفجر الأول للأمل ؛ وأن الروح التكوينية التربوية ، كانت شديدة البعد عن هذه الدعوات ، وبخاصة فيما أعقب دعوة ابن عبدالوهاب من دعوات . وعلى أية حال . فقد مهدت دعوة ابن عبد الوهاب وما حدث بعدها من أصداء ، لحدوث الفجر الصادق للفكرة الاسلامية ؛ لتبدأ مرحلة الظمأ والجوع فى الاشتداد ؛ ولتدخل الجوع الشعبية فى طور « التكتل » الذى تمخض حتى الآن عن « أندونيسيا والباكستان » ، وفى طور « التكوين » أو طور الشروق — كما يحلو لى أن أسميه — وقد قدر لذلك الطور أن يقبل فى يسر من الرأى الشعبى العام ، بغض النظر عما اعترضه من صعاب .. نتيجة للجهل الشعبى الذى يكافحه ذلك الطور ، ونتيجة للاستبداد الفردى الذى ما تزال بقاياه

ولقد بدأ هذا الطور منذ ربع قرن ، كما أسلفنا الاشارة ، نتيجة للحاجة الشعبية ، والجو المعد الملائم ، الذى سبقته الارهاصات والنذر ، فقدر لداعية الاسلام الشهيد «حسن البنا» أن يكون أول من يرتاد ذلك الطور ، فتتكون على يديه هيئة إسلامية عالمية ، كل أهدافها تنحصر فى التكوين التربوى الاجتماعى ، على النهج الاسلامى الفردى للعقيدة والسلوك ، قبل الدخول فى دور « التكتل العام » الموحد ، وأرى من التباشير ما ينبئ بالتقاء طورى « التكتل والتكوين » فى ذلك الدور المنتظر .. فى المستقبل القريب

ومن طبيعة الدعوات الناجحة أن تنمو وتتسع ، وتتعدد جوانبها ، حتى تشمل سائر مرافق الحياة . سواء منها الاجتماعى والسياسى والفكرى ... وقد كانت دعوة « الاخوان المسلمون » دعوة اجتماعية ، تمثل الحاجة الاجتماعية للشعوب الاسلامية ، وإلا لما قدر لها ذلك الصمود وهذا الانتشار . وكان لا بد لتلك الدعوة من الاتساع والامتداد ، لتشمل كل ما يتصل بحياة الانسان ؛ وليس معنى ذلك استغراق الدعوة الاجتماعية ، لكل من الميدان الفكرى والسياسى ، على تفرد فى مجالها الخاص ، بل إن أى ميدان تتناوله منهما لا بد وأن يكون إلى جوار مجاله الخاص وصفته المميزة ، صفة أخرى . هى الصفة الاجتماعية

فالدعوة الاجتماعية إذن . تزاوج بين طبيعتها وطبيعة الميدان الذى تعمل فيه . والحاجة الشعبية إذن .. كما احتاجت إلى الهيئات الاجتماعية فى الميدان الشعبى الاجتماعى ، فهى أيضا تحتاج إلى الأفراد الأفذاذ ، فى الميدان الفكرى ، وفى الميدان السياسى .. وهى كلها دون شك حاجات عامة تحتاجها الفكرة الاسلامية وشعوبها . وفرق كبير بين الحاجات العامة التى تحتاجها الفكرة والشعوب ، وبين الحاجة الخاصة التى تحتاجها الهيئات الاجتماعية لتسد الحاجة الشعبية فى الميدان الاجتماعى

والجانب الذى سنعرض له ، هو الجانب الفكرى من الميدان الاجتماعى ، وهو بلا شك ، يشمل حقلين اجتماعيين فى الفكرة الاسلامية ، هما : حقل « العقيدة » وحقل « النظام » (السلوك والتشريع) . وفى هذا الجانب بحقليه ، كتب الأستاذ محمد الغزالى كتبه ، كواحد من الدعاة فى الميدان الاجتماعى ؛ وزاوج فى مؤلفاته بين النظر إلى نظم الشرق الحالية ، ونظم الاسلام التى كانت أو التى يجب أن تكون ؛ بل زاوج بين ما يصطرع فى الأفق العالمى من مبادئ ونظريات ، وبين مبادئ الفكرة الاسلامية ، بطريقة المقابلة أو التعريض .. يحدوه فى كل ذلك الطابع الاجتماعى الذى تنشده دعوته الشعبية ، والذى لا يهدف أصلا لغير الاصلاح الاجتماعى العام كهدف أساسى مقصود . والواقع الذى تتبعناه فى كتبه ، عن طبيعته كؤلف . وطبيعة كتبه وطريقة عرضها ، يؤيد لنا ما نسبه إليه ، من أنه يعمل فى الميدان الاجتماعى وفى الجانب الفكرى منه ، ومن أنه يسد حاجة خاصة تحتاجها دعوة اجتماعية لتسد حاجة عامة من الحاجات الشعبية المعاصرة

فالأستاذ محمد الغزالى ؛ يفكر برأس عالم ، بما يحويه المنهى العلمى من لوازم الدقة المنطقية ؛ وينفعل بخواطر الأديب فى وضع تأملى محدود ؛ ويكتب بعد ذلك برأس هذا العالم ، وقلم ذلك الأديب . ولكنه ليس بالفرد الذى يجول فى محيط تفكيرى خالص ، فهو إذا عكس لا يضخم ، وإذا أحاط لا يتسق ، وإذا تغلغل لا يتوغل . ومع ذلك ، فهو صفحة حساسة صادقة التصوير الجزئى للفكرة والمجتمع ؛ فعدسة منظاره ، ليست بالمجمعة المكبرة ، ولا بالمفرقة الموزعة ؛ فهو إذن .. باحث محدود المجال ، لا يكتب للزمن كله ، والمكان

كله ، والفكرة نفسها ، بقدر ما يكتب لجيله وعصره ومن يعيش فيه ، ولسوف تلمس في أسلوبه ، ليونة الانسياب ، وعقد الفاصل حين الانتقال من فكرة إلى أخرى ، وقد يفقد أسلوبه أحيانا سلاسته التعبيرية وبساطته العامة . ولكن الفكرة والمعان ، ستظل دائما موصلة لما نبا عنه . ولسوف تحس من أصداء عباراته على طولها ، لهجة الحديث ، ونغمة النقاش ، وهمس العواطف ، وحدة الحماسة: كأنك معه في وقفة تفاهم ، تتراوح على وجهك أنفاسه . أما أداؤه فأداء تلقائي يجر في ركابه مصطلحات عديدة ، تكونت أخيرا في الميدان الاجتماعي ، من جراء البحث المستند على علوم المنطق والاقتصاد ، والنفس والاجتماع ، وأما تصويره ، فكل ما نملك قوله فيه ، أنه لن يخرج عن خصائصه ، ولا عن طريقته الناجحة من رأس المعالم الدقق ، وخواطر الأديب المتأمل

وحين نقرأ كتب الغزالي ، ورائدنا البحث عن طبيعتها وطريقة عرضها ، فسنعرف أولا أنها عامرة باللمحات ، ناطقة بقدرة المؤلف على الاستنباط والاستنتاج ، ومدللة على طرافة البحث وجدة جوانبه ومناحيه ، ولكنها لا تدل كثيراً على أنه مفكر خالص وكاتب أصيل .. فوحدة الموضوع — وإن وجدت في غالب كتبه — مفقودة الاستغراق والعمق .. ووحدة العرض وجودته ضائعة تحت هذه العناوين العديدة التي تموج بها كتبه ، والتي لا تجري على أساس من التتابع المنسق والتبويب المنظم .. ودقة التقسيم في الموضوع وفي الكتاب مفقودة العرض والطول ، ولا تشمل عادة كل الأقسام المبتغاة . وسنعرف أخيراً عن طريقة عرضه أنها طريقة هادئة متأملة .. مستطردة ، موسومة بطابع العاطفة والاخلاص وعدم التحيز ؛ وأنها طريقة ذهر منها منهج البحث الحديث . ونعلل ذلك بأن غالب كتبه قد كتب في مقالات ، لتكون « فصولا نابضة بالايمان الحي ، والمنطق الذكي ، والعاطفة الحارة » ؛ وبأنه قد كتب بطريقة ذاتية محضة ، لا تعتمد إلا على دقتها الخاصة ، وثقافتها المختمرة ، وخواطرها الذاتية ، ولكن ذلك لا يطعن مطلقاً في سدها لحاجة الجانب الفكري من الميدان الاجتماعي ، وما نظنه يقلل من أهميتها ، كما لا نزعم لحظة ، أنه سينقص قارئاً من عشرات الألوف الذين يقتنون كتبه !!

وهذا المنحى الذي ألمعنا بجوانبه ، هو ما يسيطر على ما أخرج الأستاذ الداعية محمد الغزالي في الحقل النظامي من كتب ، سواء فيها من الاسلام والأوضاع الاقتصادية ، والاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ، والاسلام والمناهج الاشتراكية ، وتأملات في الدين والحياة — ومن هنا نعلم — إلى ما سوف يخرج في أفق « السلوك » في كتابه المرقوب « خلق المسلم » ، ولكن هذا المنحى سوف يتغير كثير من جوانبه في كتابه « عقيدة المسلم » الذي أخرجه في حقل العقيدة ، ليسد به حاجة الفكرة والشعوب إليه ، غير أن هذا التغيير في بعض الأحكام ، لن يؤثر على مكانة الغزالي ، كحاجة خاصة في ميدانها الاجتماعي

ونحن أدرى والله ، أكان يجب صدور هذا الكتاب منذ سنوات ؟ أم أنه قد جاء في وقته الملائم ؟ فقد انتهت العقيدة الاسلامية إلينا الآن ، بل ومنذ أجيال عديدة ، موسومة بعلم « الكلام » ، مربوطة بمجلة المنطق « البيزنطي » مبتوتة الصلة بالفؤاد ، شديدة التآخي مع العقل . بقواه الذهنية الجافة ، ومقاييسه الآلية البحتة ، وموازينه النظرية الخالصة ، مما دفع بالعديد من طلاب العقيدة إلى الهرب من جفافها ، ليقفوا بجوار العامة اليائسين ، في رحاب التصوف وشطحاته ، باحثين عن الجذوة التي تحمي في قلوبهم جذور الايمان ، وتنعش في نفوسهم عاطفة الحب الالهي . وكنا بين ذلك ، في قفر يجدب من روح الايمان العقيدي ؛ لابتعاد العاطفة الوجدانية عنه ، ولصوق الجفاف الذهني به . وكانت حاجتنا الشعبية تحتاج إلى غربلته من الحصى ، وتصفيته من الرواسب ، وتنقيته من الخلاف ، وتشذيبه من التطرف ؛ بل تحتاج إلى أن تكتب موضوعات العقيدة من جديد ، بروح الاسلام الخالد ، الموازنة بين العقل والوجدان ، والمنطق والعاطفة منذ أن عرفنا الفجر الأول للأمل ، ومنذ أن عشنا في فجره الصادق . ولقد خرجت إلى هذا الحقل العقيدي رسائل عدة ؛ ولكنها لم تكن لتحمل روح الايمان المنساب ، وطبيعة العقيدة الصافية ، وأصالة التأليف الكامنة ، واستغراق المباحث المتعددة ؛ أما هذا الكتاب ... فقد حل كل ذلك ، وغربل ، وصفى ، ونقى ، وشذب ، حتى أحسست وأنا أقرأه ..

أنني أعيش في مشهد الفجر الأول للوجـــود ، وأتصل بالله وبالكون وبالحياة ، اتصالا أليفا لا تنفصم عراه ، ولـوف أعود لقراءة ذلك الكتاب كلما دبت في أعصابي معركة ، أو تسرب إلى نفسي قلق ، وإلى روحي اضطراب

وأعتقد أنه من العبث التفكير في تركيز الكتاب أو فكرته ، ما دامت موضوعاته الشهيرة لا تتجاوز نطاق الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وما دام المؤلف الداعية لا يسمح لأحد أن يجمع خيوط كتاب له في يديه ليعرف هيكله العام . ولسنا نقصد أن المؤلف ليتبع نهجا معينا في نسج كتابه ؛ فقد خرج لنا المؤلف في موضوعه المطروق بتقسيم جديد ، وتعديل كذلك ، وإن كانت موضوعات العقيدة ما تزال هي هي لا تزيد ، اللهم إلا في فصول يستدعيها العصر الحاضر « كعقيدة الألوهية عند الفلاسفة والعلماء » و « بين النبوة والعبقرية » . والشيء المتبقي إذن هو في معرفة المنارات الرئيسية ، التي وضعها المؤلف نصب عينيه ، حين طبخه لذلك الكتاب ، ومن مقدمة الكتاب ، نقتطف بضع نقاط ترشدنا إلى منارانه العامة : « هذه بحوث في العقيدة دفعتني إلى كتابته قلة الرسائل التي تعنى بهذا اللون من علوم الدين ، وتعرضه في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين »

« وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته عن هـذه الأصول في مظانها من ثقافتنا الدينية ، لا لأني سآتي بجديد في هذا الميدان : بل نزولا على منطق التجارب ، وانتفاعا بما اكتنف جوانب التاريخ الاسلامي من أحداث ، وتوخيا للسير في هـدى النصوص المجردة من الكتاب والسنة » . « وقد بذلت جهدي أن أتجنب أشواك الخلاف ، فإذا استطعت طيه في السياق الطرد طويته وتجاهلته ، وإذا اضطررت إلى خوضه عالجته على كره ، وذكرت ما استبان لي أنه صواب . وقد أستجهل الطرف المقابل — ولا أكفره — لأن الجهل الفاضح كما ظهر لي ، أساس كثير من المشاكل العلمية المبهمة . وربما لمحت في أخلاق المجادلين عوجا ، وفي أسلوبهم عنفا ، فأوثر مغفرة هذا كله ، على مقابلة السيئة بمثلها ؛ لأننا أمة فقيرة جدا إلى التجمع والائتلاف ، فلندفع ثمن هذا من أعصابنا .. والمرجع إلى الله »

ومع أن الكتاب قد خرج ليسد حاجة المسلمين المعاصرين في حقل العقيدة ، ويعالج مشاكل العصر ، فإن هذا الكتاب سيقبل الزمن كله والمكان كله ؛ لأن هذه الحاجة وتلك المشاكل في حقل العقيدة ، هي دائما حاجة كل الشعوب ، ومشاكل كل العصور ؛ يضاف إلى هذه العلة : أن النسق الذي أراد به المؤلف محو آثار الماضي السوداء عن جبين الحاضر في هذا الحقل ، قد دفعه إلى الحذر والأناة .. في تعبيره وتصويره وأدائه ؛ وأن طبيعة الموضوع المقســـمة المطروقة ، ووحدانه ... العديدة ، قد جعلت طريقة العرض لديه في هذا الكتاب ، حسنة التكوين مقبولة . وهذان الأمران الأخيران ، لم يعرفهما كتاب له من قبل ، وهكذا نجح في ذلك الكتاب الواقع في ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط ، وسد به حاجة خاصة للدعوة اجتماعية في الميادين الشعبية

وكل ما نرجوه ، هو أن نشهد ذلك الكتاب مطبوعا باللايين ، شائعا بين الشعوب كلها ؛ . . عسى أن تعرف عقيدة الاسلام في وضعها الطبيعي الفطري ؛ . . وعسى أن نبصر حقائق التوحيد الإلهي .. والقضاء والقدر والجبر والاختيار . . والايمان والعمل .. والخطيئة والتاب . . والخلود ؛ فتنجاب روائح الفساد السياسي والاجتماعي والنفسي .. ، ولعل الخطوة إلى ذلك : أن ندرســـه في المرحلة الثانية من التعليم الأزهري ، فنخرج طائفة تبصر جيلها بعقيدتها ، صحيحة خالية من الشوائب ، ومع هذا .. فسنظل ننتظر البحث المكتمل الشامل المبتكر .. في حل العقيدة من الميدان الفكري ، مبحثا لا يتقيد بموضوعات الماضين ، التي عت مع الجدل والزمن ، بل يستغرق مسائل العقيدة في الكتاب والسنة ، وأراه لا يكون في غير فكرة الاسلام الكلية عن « الله : والكون والحياة والانسان » وحينئذ نرجو أن نتعرف إلى لب الاسلام كاملا غير منقوص إن شاء الله

محمد فياض